مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير

ورقة سياسيَّة

2024-03-02

النقلة الاستراتيجية لمحور المقاومة

تجربة حرب طوفان الأقصى

ورقة سياسية

النقلة الاستراتيجية لمحور المقاومة

تجربة حرب طوفان الأقصى

2024/03/02

خلال سنين الحرب على سوريا، ارتسمت ملامح تشكل محور المقاومة، وازداد الحديث الغربي عنه تدريجياً، إلا أنه لم يكن هناك قدرة على تقييم نجاعة وقدرة هذا المحور. لكن عملية طوفان الأقصى كانت الحالة التي من خلالها ظهر المحور بما كان يتحضر له في السابق، ودفعت هذه الحرب- المحور- للانتقال من مستوى إلى آخر مع تنامي التصعيد والتهديد.

هذه الورقة تناقش النقلة الاستراتيجية لمحور المقاومة إزاء عملية طوفان الأقصى، من خلال تقييم العناصر التي شكّلت هذه النقلة وهي:

- المبادرة إلى الهجوم لأول مرة.
- الانتقال من الحروب التمهيدية إلى الحرب على أرض فلسطين.
- الانتقال من مواجهة الوكلاء إلى مواجهة الأمريكي.
- إدارة الحرب متعددة الساحات.
- الصمود في فلسطين مقابل القدرة الكلية لجيش الاحتلال.
- فرض الحرب المكلفة والطويلة على الكيان.
- فرض الحرب المنضبطة اللامتكافئة بالوتيرة المناسبة للمحور.
- تجاوز التفوق الاستخباراتي الصهيوني عبر المباغتة والصمود غير المتوقع.
- تحويل الرأي العام الغربي من تأييد الصهاينة إلى تأييد فلسطين.
- تجاوز العقبة التكنولوجية.

المبادرة إلى الهجوم لأول مرة

منذ نشأت الكيان المؤقت على الأراضي الفلسطينية، لم يحدث أن قامت إحدى الدول العربية بعمل عسكري بادرت فيه أولاً في الانقضاض على الكيان ما عدا حرب السادس من أكتوبر عام 1973، وإلى ما قبل عملية طوفان الأقصى جميع الحروب التي خاضها الكيان كان هو المبادر فيها إلى الهجوم، وعامل المبادرة هذا، يعد أحد أهم مرتكزات العقيدة الأمنية الإسرائيلية، إذ إن عامل المبادرة أو العامل الاستباقي والمشكل لعنصر المفاجئة هو الضامن للكيان في الدخول إلى المعركة ويكون فيها متقدماً على الخصم. إلا أن ما جرى إبان عملية طوفان الأقصى وما تلاها من عمليات إسناد من المحور، عُدَّ تحولاً استراتيجياً كبيراً نتيجة المبادرة إلى الهجوم التي خاضتها الفصائل الفلسطينية في قطاع غزة في السابع من أكتوبر والمبادرة لمختلف فصائل محور المقاومة بعد يوم العملية. هذا التحول الكبير والنوعي، أفقد بشكل مباشر العقيدة الأمنية الإسرائيلية نجاعة مرتكزاتها القائمة على الردع والإنذار المبكر وعنصر المفاجئة.

الانتقال من الحروب التمهيدية إلى الحرب على أرض فلسطين

وعلى أساس المبادرة الهجومية التي كان يقوم بها الكيان المؤقت في السابق، فإنه سرعان ما كان يبادر إلى نقل المعركة إلى أرض العدو في خطوة تعد تكتيكية يريد من خلالها إلحاق هزيمة مباشرة بالخصم ومقاتلته على أرضه قبل أن يتمكن من القتال على الأراضي المحتلة. لكن التحول في عنصر المبادرة وقيام المقاومة الفلسطينية ومختلف فصائل المحور بالمبادرة الهجومية الأولى، منع الكيان من نقل القتال إلى خارج الأراضي المحتلة، وهذا العامل ضعضع سياساته وخططه العسكرية، واضطر إزاء ذلك إلى اتباع تكتيكات عسكرية مغايرة، وأظهرت المعركة مدى الإرباك الذي لحق بالحكومة والجيش في إدارتهما للقتال.

الانتقال من مواجهة الوكلاء إلى مواجهة الأمريكي

بادر المحور إلى إسناد قطاع غزة بشتى الوسائل الممكنة وبشتى الطرق، ولدقة الموقف وحساسيته، وبعد تقدير حاسم بأن الإدارة الأمريكية هي التي تدير الحرب وتعمل على استمراريتها، قام محور المقاومة بفصائله بالانتقال من استهداف وكلاء الإدارة الأمريكية في المنطقة إلى استهداف التواجد الأمريكي بشكل مباشر، نتيجة التأثير الكبير لذلك على القرار السياسي الأمريكي تجاه الحرب. أظهر هذا الانتقال في المواجهة مدى جدية المحور في خوض الحرب

تحقيقاً للهدف الرئيسي في وقف الحرب على قطاع غزة، وهو ما أربك الإدارة الأمريكية وجعلها تدير الحرب والتفاوض بالشكل الذي يمنع ارتقاء الصراع إلى مستوى الحرب الشاملة، ويعد الانتقال إلى المواجهة المباشرة مع الأمريكي دلالة على التقدم النوعي للمحور على المستوى العسكري والمعنوي وفي حسن إدارة الحرب متعددة الساحات بالشكل المرن والمتماهي مع التطورات القائمة.

إدارة الحرب متعددة الساحات

لم يسبق أن خاض محور المقاومة تجربة مماثلة لما يجري اليوم في المنطقة، إذ إن المحور بمختلف أضلعه يتشارك في عمليات إسناد القطاع وفي إدارة الحركة مع التغيرات التي تجري على المستويين السياسي والعسكري والتأثير على الاقتصاد العالمي بالشكل الذي يؤمن الضغط الكافي والمؤثر على القرارات الأمريكية والإسرائيلية المتعلقة بالحرب. وأثبتت المعركة القائمة والتنسيق بين الأضلع في توجيه الضربات وتحديد الأهداف منها، واختيار أهداف لها نجاعة كل بما يقدر عليه وما هو متاح له، أن المحور بشكل سريع استطاع ترتيب أولوياته وخططته بالشكل المطلوب وتقديم نموذج لكيفية إدارة حرب متعددة الساحات وتجربة ناجحة لها أبعادها الاستراتيجية مستقبلاً، إذ ترسم ملامح ما سيكون عليه المحور مع استمرار التنسيق بين أضلعه.

الصمود في فلسطين مقابل القدرة الكلية لجيش الاحتلال

يمتلك جيش الاحتلال قدرات عسكرية متطورة ونوعية وكاسرة للتوازنات، وأحدث العدو من خلال هذا التجهيز العسكري الضخم دماراً كبيراً في مختلف أنحاء قطاع غزة وبالشكل الذي يريد منه إحباط وسحق معنويات وإرادة المقاومة والشعب الفلسطيني في قطاع غزة، ورغم ذلك وحتى اليوم ما تزال أعمال المقاومة في القطاع حاضرة وبشكل تظهر فيه أنها عازمة على مواصلة القتال رغم التفاوض القائم بين دول المنطقة على إيقاف الحرب، إذ إن الضغوطات السياسية المُمارسة على المقاومة لم تُفقدها عزيمتها على مواصلة القتال، فبعد الدمار الكبير والآلة العسكرية الإسرائيلية الكبيرة مقابل ضعف الإمكانات الفلسطينية، ظن الإسرائيلي والأمريكي أن أي عرض لوقف القتال سيدفع الفصائل إلى قبوله، إلا أن الأخيرة لم تقبل بوقف القتال إلا بشروطها وبالشكل الذي يضمن لها مكتسبات تُثبت انتصارها على المحتل، وهذا دلالة على أن الموقف من مواصلة المقاومة عقائدي مترسخ وغير قابل للسحق. أما على مستوى الشعب الفلسطيني، فرغم حجم الدمار المذكور، والقتل العنيف والكثيف، إلا أن مقاطع الفيديو التي تنتشر

يومياً على وسائل التواصل الاجتماعي، تظهر مدى مود الشعب وتمسكه بالمقاومة ورفض الاحتلال رغم كل عمليات التجويع والقتل التي يمارسها الكيان المؤقت بحقهم.

فرض الحرب المكلفة والطويلة على الكيان

صمود المقاومة وشعبها في قطاع غزة، فرض على الكيان المؤقت حرباً طويلة ومكلفة، ويعد هذا الأمر مكلفاً وأعباؤه كبيرة وفي تراكمه يصبح عاملاً رئيسياً في التأثير على القرار الإسرائيلي والأمريكي في استكمال الحرب، في الوقت الذي كانا- الأمريكي والإسرائيلي- هما من يحددان موعد بدء الحرب ونهايتها، ولكن في حالة طوفان الأقصى فإن المقاومة من خلال صمودها ورفضها للإملاءات السياسية عليها والشروط الهاوية، فإنها تطيل من أمد الحرب، ومع هذه الاستطالة تزداد التكلفة العسكرية والبشرية والاقتصادية التي تصيب الكيان.

فرض الحرب المنضبطة اللامتكافئة بالوتيرة المناسبة للمحور

بالمقارنة بين ما يمتلكه الكيان المؤقت من تجهيز وعتاد عسكري بالإضافة إلى الدعم غير المسبوق من الولايات المتحدة الأمريكية له، مع ما يمتلكه محور المقاومة فإن هذه الحرب يمكن تسميتها باللامتكافئة على صعيد القوة العسكرية، كلن فصائل المقاومة بإدارتها النوعية، استطاعت جعلها منضبطة بالشكل الذي يصبح عامل اللاتكافئ العسكري ضعيفاً وغير ناجع في حسم القتال، إذ إن عمليات المحور تعتمد على الضربات النوعية والتوقيت المناسب ما يضبط الحركة الأمريكية والإسرائيلية العسكرية ويفقدهم عامل التطور العسكري. لذا فإن الاشتباك بين لبنان والكيان على سبيل المثال ما زال منضبطاً بالشكل الذي لا يدفع إلى الحرب الشاملة ولا يتيح للعدو استخدام قوته العسكرية المتطورة والكبيرة كما جرى في القطاع.

تجاوز التفوق الاستخباراتي الصهيوني عبر المباغتة والصمود غير المتوقع

الفشل الأكبر إزاء عملية طوفان الأقصى قد لحق بالأجهزة الاستخباراتية لدى الكيان المؤقت، فجميع التجهيزات الأمنية من وسائل رصد وإنذار ومعلومات وجدران تفصل القطاع عن الغلاف، جميعها تهاوت لحظة انطلاق العملية، إذ إن عنصر المباغتة الفلسطيني قد تسبب بشلل كبير لهذه الأجهزة التي طالما ما اعتبر الإسرائيلي أنه متفوق متقدم بشكل شاسع وكبير عن ما يحيط به بسببها، ورغم ذلك ومع بدء الحرب، ظن العدو أنه يستطيع تعويض الفشل

من خلال تدمير القطاع وإحداث مجازر غير مسبوقة فيه، إلا أن الصمود الذي تم ذكره أعلاه، كان غير متوقعا وجعل الإسرائيلي عاجزاً عن ترميم ما فقده خلال العملية، بل إن الشعور بفقدان الأمن أمسى حالة مستدامة لدى مستوطنين خصوصاً في الشمال والجنوب، ففي الجنوب قد شهدوا العملية بالشكل الذي رسخت في أذهانهم صورة التهاوي الكبير للكيان على يد المقاومة، وأما في الشمال فإن التخوف الكبير فهو من تكرار سيناريو السابع من أكتوبر على يد حزب الله.

تحويل الرأي العام الغربي من تأييد الصهاينة إلى تأييد فلسطين

حاول الأمريكي بداية الحرب التغطية على الجرائم الإسرائيلية في قطاع غزة وكانت مجزرة مستشفى المعمداني شاهدة على ذلك في محاولة لحجب الحقيقة عن الرأي العام العالمي وعكسها بما يضر المقاومة في غزة بعد اتهامها أنها المسبب لهذه المجزرة، ورغم الكذب الإسرائيلي والمحاولات الغربية الرسمية للتغطية عليه، إلا أن جميع هذه الجهود باءت بالفشل وتدريجياً انقلب الرأي العام الدولي على الإدارة الأمريكية وعلى الكيان، وحتى اليوم ما تزال المظاهرات في مختلف أنحاء العالم تخرج وتطالب بوقف الحرب على القطاع، والحادثة الأبرز هي إحراق الجندي الأمريكي لنفسه رفضاً لما يجري على سكان القطاع. تصاعد التأييد العالمي الشعبي للقضية والرفض القاطع للآلة العسكرية الإسرائيلية عُد تحولاً كبيراً لم يكن متوقعاً من قبل الدول المهيمنة التي أمست قلقة من تداعياته على دولها أيضاً.

تجاوز العقبة التكنولوجية

لم تكتف أضلع محور المقاومة بمهاجمة الحضور الأمريكي أو الكيان المؤقت بالشكل العسكري الاعتيادي، بل إنها وبالتدرج بدأت بالكشف عن قدراتها العسكرية النوعية من خلال استخدام الصواريخ المتطورة والمسيرات والتكنولوجيا العسكرية المتقدمة، والحالتين الأبرز الاتان أثبتتا ذلك، اعتراض السفن الإسرائيلية والأمريكية من قبل اليمنيين في البحر الأحمر وحادثت إسقاط المسيرة الإسرائيلية هرمز من قبل حزب الله. إن هذه العمليات النوعية والمتطورة أثبتت أن المحور قد تجاوز العقبة التكنولوجية وأنه قادر على إلحاق ضرر كبير من خلال هذا التجاوز.

خلاصة

تشكل الحرب اليوم عقدة استراتيجية كبيرة بالنسبة للإدارة الأمريكية والكيان المؤقت، فالتخوف الكبير يكمن في تداعيات هذه الحرب والمستوى الي سيرتقي له محور المقاومة من بعدها، خاصةً بعد وضوح تماسكه وقدراتها العملياتية على إدارة ساحاته بالشكل المطلوب، وتكمن المشكلة في آثار هذه النقلة الاستراتيجية وتداعياتها على الكيان بشكل مباشر بعدما لمس مؤخراً التهديد الوجودي الذي يشكله المحور عليه، لذا فإن الكيان يبحث اليوم عن بديل لعقيدته الأمنية السابقة يضمن له مواجهة المحور ككل، فالنقلة الاستراتيجية نقلت الفصيل إلى مستوى المحور، وهذا الخطر الأكبر الذي أدركه الكيان ويدفعه نحو تطوير عقيدته للمواجهة المستقبلية مع المحور أجمع.